

انتهى أمحي

للأستاذ محمود خيرت

سرير بلدكان الباجا
بوصه ٣ طراز لويس
الرابع عشر كان مخصصاً
لنوم البارون دي ...
وعند ذلك يتبارى
الراغبون فيه قسماً
تجاوزهم في المزايدة خمسة

جنهيات ... ونصف ... سبعة ... ونصف ... عشرة
وعندئذ يصبح العامل في أسف :
عشرة جنهيات بس : مين قال حدائر ... راج
نبيع ... راج ينكسب ... لأونه : الأثرية ،
ميرولك عليك يفندى

أما أنا فكنت في شغل عن هذه الحركة بعداعية
اليقضاء ، أحدها فتسكت ، وأستمطعها فلا تجيب .
وقد خطرت لي أن أغريها بقطعة من السكر من مقهى
قريب بلنى وبين صاحبه صبة . ولكنها مع ذلك لم ترم
صمتها بالرغم من إلحاحي ؛ وكان صبرها فرغ فرفعت
في وجهي عينيها المستديرتين الصغيرتين ثم فتحت
منقارها الأصغر صائحة في غضب : لأ . لأ . وعند
ذلك أقبل الدلال ونقاهما إلى مائدة في وسط المكان
فأخذ الحاضرون يتدافعون حولها ثم طرحها في
المزاد ، حتى إذا وقف عند سبعة جنهيات صاحت
اليقضاء من داخل الفمض وهي تقول : (ثمانية)
فضحك الناس إلا واحداً من بينهم كان يسمع له
أنين وبكاء . وكان رجلاً قصير القامة ذابل العينين
فأخذ يقول وقد اخضت لحيته البيضاء بالدموع :
لأها تساوى أضعاف ذلك لأنها تعرف أربع لغات ،
وكانت أنيسي في غيبة زوجتي وأولادى بآتيننا ، ولولا
هذه الحرب القائمة لماعزمت على إلحاحي بهم ولا

كنت أجد صالة البيوع هاجمة ، يخيّل إلى
وأنا أمر في مماشيها المتلوية بسبب تكديس محتوياتها
أنها خالية من القاعين عليها . ومديرها مترو في
ركن مظلم وقد أرباه الكسل وعلبه النعاس ،
وكذلك عماله ، لو قوف حركة البيع والشراء بسبب
دخول فصل الصيف

أما المكان فكان مكتظاً بمختلف المعروضات ،
فهنا أثاث قديم ولكنه من طراز لويس الخامس
عشر أو السادس عشر ، وهناك في بعض الأركان
تماثيل من الجص والطين المحترق والبرنز استوفقتني
من بينها تماثيل من الرمر لمادة عارية تناعى جسمها
في الحسن ودقة النسب ، وعلى كتفها دراعة يند
طرفها فيغطى أحد نهديها وأعلى نهديةها وهي من
نفس الرمر ، ولكنك مع ذلك تكاد تلمح من خلالها
محاسن هذا الجسم الفتان الناعم . وفي مكان آخر
فقص أسلاكه من النحاس به يقضاء لا تنطق ولا
تتحرك كأنها من بعض التماثيل الخ . الخ

ولكن الصالة في ذلك اليوم كانت تموج بالناس
وبأيديهم بيان مطلوب يقفون منه على ما سيدنولوه
المزاد ، وكان المدير وعماله يتنقلون في أرجاء الصالة
وقد امتلأوا نشاطاً وحركة ، حتى إذا مادنا الموعد
ودق الجرس أخذ الدلال يصبح بصوت عال :

لطيف من السرور والنشوة

وكان يتنازعني عندئذ عاملان قويان امتزج فيهما سلطان الفن بسلطان العاطفة ، لأن الطريقة التي اتبعها المصور فيهما حديثة يطلقون عليها اسم Impressionisme أى رصد الآثار الوقتية التي تشعر به النفس . والمصور على أساس هذه الطريقة يقذف بألوانه فوق لوحه قذفاً لكي لا يتبدد الآثار التي تكون النفس قد شمعت به في لحظات تأملها . ولذلك لا تجد نفسك أمام لوحة مستوية مصقولة بل أمام ما يشبه أطواراً وأغواراً من ألوان متحجرة لو أنك مررت عليها بأصابعك لتفترقت نفسك عند لمسها . ولكنك إذا نظرت إليها من بعيد هالك ما يتجلى فيها من جمال الطبيعة الحى فتسحرك سحراً وتفنتك فتوناً . على أن نفسي أخذت بعد ذلك تنحدر في اتجاه آخر وأنا أنساءل عن حقيقة هذين الشخصين : أكانا أخوين ؟ أم كانا زوجين ؟ لأن الذي صورهما شخص واحد (ج . موستا كيس) ولما بين الصورتين من الوحدة في الوضع والالتفات والقياس والإطار . كما أن الصالة اشترطت أن لا تباع إحداها دون الأخرى ؛ ثم إنى لمحت فوق جمال امرأة وسموها الباديين من خلال شيخوختها وفوق ما يشبه وجه الرجل من دلائل القوة والنبيل أنه يحمل معطفاً من معاطف الجندي لا يرتديه إلا ذو مقام فيها . وعندئذ يذهب خاطري إلى أنهما كرتما النبات ، وكانا في بسطة من العيش فلما كثر لهما الخط سلكا سبيل ذلك النفر الذي يفقره البؤس وتفنيه الشيخوخة بما تحمل معها من أجسام مترهلة ووجوه مفضنة مما يسعى إليه الفنانون في دراساتهم ، ولذلك دفعت بهما الحاجة إلى الوقوف أمامهم كنماذج

اضطرت إلى التفريط في هذا الطير الذى يحبني وأعبده . ثم يعود إلى البكاء

أما في هذه المرة فقد كان المروض صورتين زيتيتين لرأسى رجل وامرأة طاعنين في السن ، وما كانت مساحة كل منهما تتجاوز عشرين سنتيمتراً في عشرة

أخذ النادى بصيحه : الثمن الأساسى جنيهان لكل صورة . والمزاد عليهما معاً . ولكن الناس أعرضوا عنهما مع ما كانتا عليه من دقة الصنع وروعة الفن ، وأخيراً أعادهما إلى حيث كانتا وأخذ في إشهار المزاد عن معروضات أخرى

لقد كانت هاتان الصورتان آيتين من آيات الفن الحديث ومع ذلك غفل الناس عن التفكير في اقتنائهما وما كان المزاد يرسو فيهما بأكثر من بضعة جنيهات ولكنهم أحجموا ولطم العذر ، وما كانت النفوس في مصر قد استعدت وقتئذ لقبهم مثل هذه الآثار وتقديرها والشفغ بها ؛ ولو أننى كنت في ذلك اليوم أملك أكثر من جنيهين كانا كل ما ميلى لما ترددت لحظة في الظفر بهما لأننى بالرغم من اشتغالى بالإنحاشة كنت أيضاً مولعاً بالتصوير أتلقى فيه درساً على المرحوم باولو فورشيلا أستاذ مدرسة الفنون الجميلة . بل إننى كنت أيضاً أكثر من الاطلاع على بعض مجلات هذا الفن وعلى بضعة من الكتب الموضوعية فيه ومنها أجرومية شارل بلان التي هى بالنسبة للفنون الجميلة أشبه بمقدمة ابن خلدون بالنسبة لتاريخ العمران ، ولذلك كانت نفسى مهيأة إلى حد ما لإدراك ما لهما من الصورتين من القيمة الفنية حتى أننى بعد أن أعادهما النادى إلى مكانهما لبثت أنظر إليهما في خشوع وأنا يفعمنى سيال

ويقتصر لها ولذلك أخذت تبعاً نفسها هذه المرة لتصفع كبريائي وجهي الصفعة الأخيرة . ولكن كم كانت دهشتها حين رآته على غير رأيها وأن مادفنته ليس بالكثير في جانب هذه اللوحة القيمة . وعند ذلك خيل إليها أنه إنما يمزح أو أنه مثلي محنون ؛ ثم أرادت أن تبين أمره فقالت له : إذن خذها بالثمن الذي دفعه زوجي فيها فقال : بل إنني أدفع فيها عشرين جنبها لو أنه يرضى . أما أنا فرفضت ، وأما هي فخرجت مغضبة

والواقع أنني ما كنت لأقبل فيها ثمناً ما مهما كان مع أنها ما كانت إلا قطعة بسيطة من القماش في إطار قديم لا تساوي معه بضعة قروش . ولكن القيمة في الفن الذي كساها ، واليد انوّهوبة الماهرة التي أخرجته عليها . والفنان ، الذي وهو بصور نموذجيه ، تجرد عن كل شيء ، إلا عن التفكير فيهما فامتزجت نفسه بنفسيهما حتى لتلمس في هذه الخرقعة البالية وفي أختها خفقات قلبه ، وحرارة أنفاسه ، وهيامه بغته ، وتلاشيه فيه . فما هي إلا وحي أرسلته خواطره ، وأبدعته ألوانه الخاضعة وأصابه الجبارة . وإذن فكيف أفرط فيها ولا أكون ضئيلاً كل الضن بها ؟ إن البخيل ليكثر الدينار لذهبه ، ولكن الفنان أو الموهب بالفن يحتفظ به للنقش البديع الذي على وجهيه . وقد يكون هذا النقش على قطعة من الحديد لا تساوي شيئاً ولكنه لا يتزل عنها ولو غوّس فيها سبيكة من الذهب الخالص

كنت سعيداً كل السعادة بهذه الصورة لا أخرج إلا إذا عرجت على غرفة مكتبي لأملأ عيني منها ولا أعود حتى أسرع نحوها لأطمئن عليها . أما زوجتي فما عادت تكلمني في شأنها ولكن أثر

وكثيراً ما كنت أمر على تلك الصالة فأجد صورتين في مكانهما وأساوم صاحبهما فيهما أو في أحدهما فيأبني ، وأخيراً قبل أن يأخذ في واحدة منهما ثلاثة جنيهات ، فاخترت المرأة وحملتها إلى منزلي وأنا أشعر بأنني أحمل كثيراً .

كنت في ذلك اليوم أشعر بالسعادة تهبط على من جميع النواحي وأحس وأنا أعلقها على أحد جدران مكتبي بحيث تقع عيني دائماً عليها أنني ظفرت بأسمى تحفة من تحف الفن . نعم إن زوجتي حين أبصرتها كادت تستلق على ظهرها من الضحك ، وهي تدهش لأنني قد دفعت فيها ذلك الثمن مع أنها لا تساوي في نظرها قرشاً . ولكنني كنت في شغل عنها بما يقوح به ذلك الوجه الغبر وتلك البشرة المتجمدة من غير الجمال والإبداع مما زاد في ثورتها ، فجمعت حولي أولادها وهي تقول : أنظروا ماذا جاء به أبوكم اليوم ! ومن الغريب أنه كثير الإعجاب بها ويقول إنها من أجمل الصور التي رآها : وعند ذلك يتفجرون بالضحك ويصيحون : إيه إيه ! دي جميلة ، دي زي ستنا الميجوزة اللي ماتت . مش كده يا ماما . وعند ذلك تشتمخ بأنفها كأنها قد تم لها الانتصار على وأنا في نفسي أنفحك عليها وعلى هذا الجهل الذي غمرها حتى طاب لها الاستعجاب بهؤلاء الصغار

وبالتبها اكتفت بذلك فقد أخذت تروي قصتي هذه لكل من تجتمع بهن من السيدات سواء في دارنا أو في دورهن في أيام زيارتها لهن حتى علم من يعرفوننا بخبر تلك الصورة وحتى أقبل أحدهم ليروني ويرى بعينه ذلك الأثر الذي أقام كل هذه الصنعة ، وكانت زوجتي حاضرة مجلسنا وهي تحدث نفسها بأن هذا الزائر سوف ينصفها

الدار حتى ناولني خادمي كتاباً قال إن رجلاً تركه
وسيعود
سیدی المحترم

لم يسبق لي أن حظيت بمعرفتك . ولكن سرّاً
ألمّا هو الذي جعلني أقصدك وأطعم في عونك
وأنت محام تنصر الحق و يفيض قلبك بالرحمة . في
سنة ١٨٩٨ كنت أميياً لامتحان السنة النهائية
للفنون الجميلة بمدرسة أتيبا . وكان من بين اللوحات
التي يجب أن أقدم بها صورتان لشخصين مما يعبر
عنه بالمحاولة (Etude) فرأيت أن تكونا صورتي
أبي وأمي الشيوخ . ولما نجحت حجزوا تلك اللوحات
إلا صورتيهما فقد احتفظت بهما لمعّيتهما على . ولما
قمت الحرب العالمية الأخيرة وقف عملي وضاعت
يدي فضطرت إلى بيعهما وأنا أبكي . ولكني
وقد تهيأ لي سبيل العمل رأيت من الفواجب أن
أستعيد هذين الأثرين اللذين أفرغت فيهما مواهب
وحبي . وقد عثرت على أحدهما أمس فقط بأحدى
صالات البيع وعلمت أن الأخرى عندك . . . فهل
تحوّل بينهما وبينتي ؟ إنها أمي . . .

ج . موستانا كيس

وما كدت أنتهي من تلاوة هذا الكتاب حتى
سرّني غنى وخفّ عبء الهم الذي كان يضغط على
صدرى : وكان الرجل قد أقبل فسبقته إلى غرفة
مكتبي وأخذت الصورة من مكانها وأنا أقول لها
في نفسي : هاأنذا أبر بوعدي فأردك لا إلى زوجك
نحسب ، بل إلى حظيرة ولدك أيضاً . ثم ناولته إيّاها
فشكرني بلسان مضطرب ثم طبع على خدي قبلة
شعرت أنّها هي التي طبعها .

محمود ضيرت

(القاعرة)

الحزن كان بادياً على وجهها وعلى حركاتها . ولعلها
الغيرة التي أحدثت ذلك والنساء يغرن حتى من
صورة ، وحتى من صورة لامرأة عجوز

على أن هذه السعادة لم تدم طويلاً . فلقد كنت
ذات ليلة مستغرقاً في النظر إليها فانتقل خاطري فجأة
إلى صالة البيوع وإلى الصورة الأخرى التي بها .
وعند ذلك عمرني حزن خفي وشملني ذهول مشوش
وخيل لي أن الصورتين إن هما إلا روحان قربت بينهما
تلك الصالة فكانتا سميدتين بهذا القرب ، أما وقد
فرقت بينهما فقد هدمت بعمل هذا تلك السعادة .
وعند ذلك رفعت بصري إليها فهاأني ما صورته لي
وهي وكان الحزن يرج الإطار رجاً ويهز الصورة
التي بين أعواده هزاً عنيفاً ، كما خيل لي أن شعرها
السنجاني تحول إلى بياض ناصع ، وأن السطور
الأربعة التي ارتسمت على جبينها أصبحت مضاعفة
وأن تينك العينين اللابلتين اللتين كان يشع منهما
النور واللاطف والسكون أصبحتا أكثر ذبولاً ،
وانبثق منهما شعاعان ضعيفان يحمالان في ذراتهما
كل معاني الظلمة والأسى والاضطراب . وعند ذلك
انجبه خاطري إلى صورة ذلك الجندي الخبيس في
ظلام تلك الصالة ، فكاد يغمى عليّ لما صار إليّ وقد
فعل فيه البعد ما فعل بأخته أو زوجه ، حتى أنني لما
أصبح الصباح عقدت العزم على اقتناء تلك الصورة
وأنا أقول لأختها في نفسي : إن تحزني فسيكون إلى
جانبك بعد قليل . ولكن صاحب الصالة أفهمني أنّها
بيعت من يوم ، وأنه لا يعرف أين يقيم ذلك الذي
اشترأها . فعدت ، وقد توزعت خواطري وبَطْطُوت
خطواتي وثقل همي ، ونكني ما كدت أجتاز عتبة